# الإنسان والإنسان الكامل

ملهاه وفلسفة فى أربعة فصول يليها، منبثقا منها كتاب.

ألف الكتاب الجامع برناردشو. ونقله عن الانجليزية الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى.

صدر برناردشو، كتابه بمقدمة استغرقت أربعة وأربعين صفحة.

ومقدمات برناردشو ليس كالمقدمات. إنها موضوع للدرس والتقصى ومؤشر إلى عوالم شتى.

ألف برناردشو هذا الكتاب سنة ١٩٠١.

ومسرحيات برناردشو للقراءة لما يبثه فيها من آراء ونقد وسخرية وفلسفة وحكمة.. إلى الحد الذى حدا، به، إلى أ ن يجمع فى آخر الكتاب أو آخر المسرحية، أقول بطل المسرحية. «جون تانر فى:

- الملكية والزواج
- فى التربية الحسنة
- تجربة طلاب الكمال
- معارضة الإنسان فى تحسنه
- الحاجة السياسية إلى الإنسان الكامل
- تفسير التحاشم
- التقدم وهم
- غرور المدين
- حكم التاريخ

وكأنه خشى على هذه الآراء أن تضيع فى المسرحية لأنها آراؤه هو من خلال البطل ولم يكتف برناردشو بهذا بل أردفه بفصل كبير تحت عنوان: (حكم للثوريين).

ولد برناردشو سنة ١٨٥٦ وعاش حتى تجاوز التسعين من سنيه أى عاش قرنا بتجاربه ومن هنا قيمة الكلمة منه كاتبا وإنسانا.

ومن الطريف والغريب معا أن برناردشو كان تلميذا فاشلا. كان يكره المدرسة إلى الحد الذى أبى معه بعد أن تسنم ذروة الشهرة، أن تلخص بعض كتبه للمدارس حتى لا يكره التلاميذ كتبه، على حد قوله. ولكنه كان كثير القراءة واسع الاطلاع فى عمق وبصيرة.

وكان فى طفولته يكره الألعاب الرياضية، ويغرم بالألاعيب الصبيانية، ولم يكن عنده ميل إلى المنافسة، فلم تستهوه الجوائز والمباريات المدرسية، لوم تحفزه إلى تناول شىء لا يحبه ولا يأنس من نفسه استعدادا، له . فقد كان من رأيه أن كل نشاط غير طبيعى للذهن ككل نشاط غير طبيعى للجسم، وأن الضغط على الناس لتعلم ما لا يحبون ضار وبيل، كإطعامهم «النشارة».

اضطر فى صباه إلى العمل فى مصنع أقمشة ثم كاتبا عند سماسرة للأراضى وضحكت الأقدار. فبرناردشو، خلق ليكون كاتبا أديبا كبيرا وباقيا.. كاتبا معتدا بنفسه مؤمنا بموهبته لأن الموهبة من عطاء الله لافضل لأحد فيها. وبرناردشو كان نباتيا لا يأكل اللحم ولا يقرب الخمر.. وهو لون من الخلوص.. عاش الكتابة وعاشته.. سافر فيها وسافرت فيه فأعطى وأوفى.. وفى مقدمة مسرحياته، هذه المسرحية التى مثلت نحو مائتى مرة.. وقد مكثت على مسرح نيويورك خمسة أشهر متتالية. وقد شكا تولستوى من أن «شو» فيها جعل الناس يضحكون فى أشد مواقف الجد، بفكاهته ودعابته العذبة المريرة فى آن.

أبدأ بلمحات من مقدمة «شو» للكتاب»

يقول معتزا بقوة الكلمة فى الشعوب: (فى فرنسا القرن الثامن عشر كانت النهاية دانية حين ابتاع الناس دائرة المعارف، ووجدوا فيها ديديروه) يشير إلى الكاتب الفرنسى Denis Dederot وهو أحد الكتاب الفرنسيين الذين مهدوا للثورة وان لم يشهد مولدها.

ومن تعبيرات «شو» الطريفة والرشيقة والأنيقة فى وقت واحد:

(الطلب الوحيد الذى تطلبه علانية، هو ما يتطلبه مزاجك الفنى من وضعية وأناقة، وأسلوب، وظرف، وتهذيب ، واستقامة تلى الورع إن لم تتقدمه).

ومن سخريات (شو) قوله: (وإنى لأجد المرأة فى مسرحياتى وقد أبرزتها يداى فى صورة درامية «وهى عملية أؤكد لك أننى لا سلطان لى عليها أكثر مما لى على زوجتى»)

ويقول: (إننا نضحك من الأمة الأمريكية المتعجرفة لأنها تضطر الزنجى إلى مسح أحذيتها، ثم تدلل على انحطاط الزنجى الأدبى والمادى بأنه ماسح أحذية).

ويمجد «برناردشو» الأمومة (فعندما تأتى لحظة الميلاد المرعبة يتضاءل الأب الذى لا يساهم فيها، حيال أهميتها الفائقة ومجهودها الذى يتحدى طاقة البشر، والأخطار المصاحبة لها..

بيد أنه حين تمر الضائقة يثأر لنفسه فيباهى بأنه عائل الأسرة، ويتنزل إلى الكلام عن «منطقة» المرأة ويتخذ لهجة الفرسان، كما لو كان المطبخ وحجرة الأطفال أقل شأناً من مكتبه بالمدينة).

ويقول (إنهم يزعمون أن على المرأة أن تنتظر بلا حراك حتى يتقدم الرجل لخطب ودها على أنها غالبا ما تنتظر بلا حراك، فهكذا ينتظر العنكبوت، الذبابة.. لكن العنكبوت ينسج خيوطه ، فإذا أبدت الذبابة، كما يبدى بطلى، قوة تبشر باحتياله، فما أسرع ما يعدل العنكبوت عن سكونه المصطنع، فيشرع يرمى الذبابة بالطية تلو الطيه، حتى يضمنها لنفسه الى الأبد).

وبعد المسرحية كتيب باسم (موجز الثورى ورفيق جيبه). بقلم جون تانر وهو بطل المسرحية.

والموجز كالمسرحية بقلم برناردشو نفسه كما أسلفت.

يقول برناردشو عن غرور المدينة (يعطى الأحرار الفقير حق التصويت أملا فى أن يمنح محرريه صوته، ولا يتحقق الرجاء. لكن سجن المعدمين مدى الحياة وفاء لديونهم يلغى، وتسن قوانين للمصانع للتخفيف عن العمال، ويجعل التعليم فى المدارس حرا وإجباريا، وتكثر اللوائح الصحية، وتتخذ الإجراءات العامة لإسكان الجماهير السكنى اللائقة، ويحصل الحفاة على أحذية، وتندر الأسمال، وتصبح غرف الحمام، والملابس الأنيقة ذات الخطوط المنحرفة، والبنانيق المنشاة، فى متناول جم من الناس كانوا ذات يوم لا تعرف أجسامهم الصابون.

وبعض هذه التغييرات مكسب، وبعضها خسارة.. وبعضها ليس تغييرا مطلقا.. وجميعها مجرد تغييرات من عمل المال، لكنها تدخل فى الروع أن هنالك تقدما صاخبا. ويستنتج طبقة القراء، منها أن مساوىء العهد الفيكتورى الأول لم تعد قائمة، اللهم إلا فى صفحات مسلية من

روايات ديكنز. لكنه فى اللحظة التى نبحث فيها عن إصلاح يرجع إلى الخلق لا إلى المال.. إلى سياسة الممالك لا إلى المصلحة أو التمرد، تتبدد أوهامنا).

ويقول برناردشو فى باب (غرور المدنية) إن المسيحية السمحة لم تهذبنا فنبثنا جثة المهدى، ومثلنا بها كما نبشنا ومثلنا بجثة كروميل من قرنين مضيا بالضبط. وقد طالبنا بضرب أعناق أمراء البوكسير الصينيين كما كان يمكن أن يفعل أى تترى. وحملاتنا الحربية والبحرية التى جردناها لقتل القبائل وحرق القرى وتدميرها لآن انجليزيا أصيب بضربة على رأسه- يشير إلى واقعة دنشواى- قد أصبحت شائعة فى سياستنا الامبراطورية.

ويقول برناردشو (الكذب الصريح العام قد تطور تطورا هائلا حتى لم يعد ثَمَّ فرق فيه بين النشال فى قسم البوليس والوزير على مقعده).

ويقول (نحن نذبح العجل ونعلقه من رجليه لينزف دمه كيما نحصل منه على كستليته بيضاء. ونحن نسمر الأوز على لوح ونحشوه بالطعام لأننا نحب أن نتذوق مرض الكبد.. ونحن نمزق الطيور إربا لنزين قبعات نسائنا، ونحن نمثل بحيواناتنا الداجنة لا لشيء سوى السير وراء مودة.. نحس قسوتها بغريزتنا، ونحن نتستر على أفظع حالات التعذيب أملا فى أن نهتدى بها إلى علاج سحرى لأمراضنا).

ويقول فى باب (حكم التاريخ).

قد يقال إنه وإن ثار الحيوان المتوحش فى الإنسان ورده أحيانا إلى الهمجية تحت تأثير الانفعال الذى يصيبه من الحرب والجريمة، فحياة الإنسان العادية أرفع مستوى مما كانت عليه حياة أسلافه. وهذا رأى يأخذ به الانجليز الذين يستندون دائما إلى الفضيلة مخلصين مادامت لا تكلفهم شيئا من المال أو التفكير.

وفى قسم (حكم للثوريين) يقول برناردشو:

(احترس من الإنسان الذى إلهه فى السموات).

ويقول : ( الفضيلة هى فى عدم اشتهاء الرذيلة لا فى الامتناع عنها).

ويقول: (احترس من الرجل الذى لا يرد ضربتك: إنه لا يسامحك ولا يسمح لك بأن تسامح نفسك).

وبعد فهـذه مؤشرات فقط إلى فكر برناردشـو الذى دافع عن مصر فى واقعة دنشـواى.. تحية امتنان وعرفان من مصريه.

obeikandl.com